﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التّوبة: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين نفي تعمير المساجد بالكفر، وبين أحقّية المؤمنين بعمارتها

لمّا نفى الله تعالى عن الكافرين أهليَّةَ عمارةِ مساجدِ الله بيَّن من يصلحُ أن يعمرَها، فذكر صفاتِ عُمَّار مساجدِ الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، لبيانِ ضرورة عمارة مساجدِ الله[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: الهدى ضدُّ الضَّلال، والهدايةُ هنا بمعنى توفيق الله الذي يختصُّ به من اهتدى، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]، وقولِه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]، وكلُّ هداية ذكرَ الله ﷻ أنَّه منع مِنها الظَّالمين والكافرين؛ فهي هدايةُ التَّوفيق الذي يختصُّ به المهتدون، ولفظ المهتدي يفيد أنَّه حصَلَ البذلُ مِنَ الهَادِي في الهدايةِ، وحصَلَ القبولُ المفيدُ من المحلِّ، ولهذا يقال: هداهم اللهُ، فاهتدَوا، والاهْتِدَاءُ هنا: هو تحرِّي الهداية وقبولُها والعملُ بها حتَّى تصيرَ وصفًا ثابتًا لمن يتحرَّاها[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

عُـمَّـارُ مساجدِ الـلـه، هـم أهل الإيـمـان بالله، والإخـــلاص له دون سواه

إنَّما يعمُرُ مساجد الله، ويُعتدُّ بعمارتِه، ويثابُ عليها، مَن آمنَ بالله وحده وآمن باليوم الآخر موعدًا ومصيرًا، وحسابًا وجزاءً، وأدَّى الصَّلاةَ على وجهِها المشروعِ في مواقيتِها، وأعطى الزَّكاةَ بأنواعِها ومقاديرِها لمستحقِّيها، وَفْقًا لِمَا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ وامتثالًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/518، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/401.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هدى).

لأَمرِه وإيمانًا به، ولم يخَفْ في الحقِّ غيرَ اللهِ تعالى، فأولئك خليقٌ بهم أن يكونوا هم المهتدين إلى الحقِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

لمّا نفى اللهُ تعالى عن الكافرينَ صحَّةَ عمارتِهم مساجدَ الله، وبيَّنَ عدمَ أهليَّتهم للأمر؛ اقتضى سؤالًا في نفوسِ السَّامعينَ، مفادُه: إذا كان الكفَّارُ لا يعمرونَ مساجدَ اللهِ، وكان لا بدَّ من عمارتهم، فمن يعمرُها؟ إشعارًا بأنَّه لابدَّ من إعمارِ مساجدِ الله سواءٌ كان بالبناء أم بالعبادة والقيام عليها، فكان قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مفيدًا الجوابَ على السُّؤال المقدَّر.

لا بدَّ من إعمارِ مساجدِ الله بالبناء وإقامةِ العباداتِ فيها

دلالةُ القصرِ بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾:

عبَّرَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لإفادة تأكيد المعنى وتقريره، والتقدير: ما يعمرُ مساجدَ الله إلَّا من آمن بالله واليوم والآخر، وللدَّلالة على تقريرِ معنى تحقُّقِ العمار ووجودِه، أي: إنَّما يَعْمُرُها بالحقِّ والواجبِ، ويَسْتَقيمُ وقوعُها، ويصحُّ فيمَنِ اتَّصَفَ بهذه الأوصاف، فالمراد من القصرِ ههنا أنَّ عمارةَ مساجدِ الله مقصورةٌ على المذكورين بالفعلِ والتَّحَقُّقِ لا بمجرَّد الجوازِ والاستحقاق واللِّياقة، وهو الَّذي يقتضيه مقامُ الإيجابِ المخالفُ لمقامِ السَّلب في الآية السَّابقة[2].

قصرُ عُمَّارِ مساجدِ الله على المؤمنين، فيه مزيدُ تكريمٍ لهم

بلاغةُ أسلوب القصرِ بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾:

لمّا كان التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ يسلك مع مخاطَبٍ لا يصرُّ على خطئِه، أو يجب عليه ألَّا يصرَّ على خطئِه لوضوح الحكم وجلائه، وأنَّه معلومٌ للجميع، ولا يحتاج إلى دليلٍ؛ دلَّ على وضوحِ قصرِ الصِّفة - وهي عمارة مساجد الله - على المؤمنين، أي: لا يعمرُها إلَّا مَن آمن بالله

عِمارةُ المؤمنين مساجدَ اللهِ دونَ غيرِهم أمرٌ واضحٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/167، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1671.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/189.

واليوم الآخر، وأنَّ الأمرَ من الجلاء بحيثُ إنَّ المخاطب الذي ظنَّ خلافَهُ إذا سمع هذا الخطابَ لايدفعُ صحَّتَه، وتلقَّاه بالقبولِ، ورجعَ إلى الصَّواب، ولمَّا كان هذا الأسلوبُ لردِّ المخاطَب عن خطأٍ وقع فيه ظنًّا أو عملًا؛ أفادَ تأكيدَ عدمِ صحَّةِ أن يعمرَ المشركون مساجدَ اللّه، فأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ تقريرَ معنى الآيةِ السَّابقة، وإفادةَ قصرِ وصفِ الإعمار على المؤمنين، وأنَّ هذا الخبرَ يعلمُه المخاطبون، ويقرُّون به، ولا ينكرونه بحالٍ، ولمّا أفادَ القصرُ نفيَ صحَّةِ عمارةِ المشركين مساجدَ اللّهِ، وأبطلَ أهليَّتَهم، وأثبتَها للمؤمنين؛ دلَّ على أنَّ عمارة مساجدِ اللّه أمرٌ لا بدَّ من حصولِه ووقوعِه[1].

فائدةُ التَّعبير بصيغة المضارعِ ﴿يَعۡمُرُ﴾:

عُبِّرَ بصيغة المضارع لإفادة تجدُّد الحدث واستمرارِه حالًا فحالًا، ففيه حثٌّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللّه ببنائها والعبادة فيها.

الحثُّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللهِ، ببنائِها والقيامِ بحقِّها

دلالةُ جملة عمران مساجد الله تعالى:

دلّ قولُهُ: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ عمارةَ المساجد تتناول رمَّ ما استرمَّ منها، وقمَّها وتنظيفَها، وتزيينَها بالفُرُش وتنويرَها بالمصابيحِ، وتعظيمَها، واعتيادَها للعبادةِ والذِّكرِ، ومن الذِّكرِ درسُ العلمِ، بل هو أجلُّه وأعظمُه، ومن عمارتِها صيانتُها عَمَّا لَمْ تُبْنَ لَهُ من حديثِ الدُّنيا ممَّا لا علاقةَ له بأمورِ الدِّين[2].

عمارةُ المساجدِ ببنائِها وإصلاحِها والقيامِ بحقِّها

بلاغةُ إقامةِ الظَّاهر مُقَامَ الضَّميرِ:

لم يقل: (إنَّما يعمرها) معَ قربِ ذكر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ في الآية السَّابقة، فأعادَ الاسمَ الظَّاهرَ في مقامِ وضعِ الضَّمير؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ ليفيدَ الحكمُ عمومَ المعنى، لئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّه مختصٌّ بعمارة المسجد الحرامِ، فيكونَ اللَّفظ شاملًا

كفرُ الكافرِ باللهِ يتنافى مع إعمارِه مساجدَ اللهِ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 331، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 291 - 295، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

لجميعِ المساجدِ، ويكونَ من بابِ ذكرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ، فاقتضى إعادةَ ذكرِه، كما أنَّه لمّا جاء بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ وكان في سياق بيانِ وضوحِ الخبر وجلائهِ كرَّر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إعمارَ مساجدِ اللّه إنَّما يكونُ إعمارًا لها إذا كان الذي يعمُرُها هو المؤمنَ، فأمَّا الكافرُ؛ فإنَّ كفرَهُ باللّه يتنافى مع إعمار مساجدِ اللّه التي تكون لعبادتِه وتوحيده.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ على الطَّلبِ:

المؤمنون يتسابقون إلى عمارة المساجدِ، والقيامِ بحقِّها، تقرُّبًا إلى الله تعالى

جاء قوله: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بصيغة الجملة الخبريَّة، للإخبار عمَّن يعمرُ مساجدَ اللّهِ، وتضمَّنت أمرَ المؤمنين بعمارةِ المساجدِ، فأفادت أنَّ على المسلمين عمارةَ المساجدِ، كما أفادت أنَّ عمارةَ المساجدِ تكون بهم لا بغيرهم، وهم من ينبغي أن يعمروها[1]، ولمّا تضمَّن الخبرُ هنا معنى الطَّلب، ولم يقل مثلًا: (اعمروا مساجدَ اللّه)؛ كان الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وفائدتُه هو قصدُ التَّفاؤل بوقوعِ عمارِها، وإظهارُ الرَّغبةِ في وقوعِها والرِّضا عنه، للإخبارِ عن حصولِهِ في الحالِ وفي المستقبلِ، وفيه حملُ المؤمنين على عمارتها بأبلغِ عبارةٍ وألطفِها، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّهم يتسابقونَ إلى عمارتها، ويعمُرونها قبل الأمرِ بها، فيكون مدحًا لهم[2].

سببُ عدمِ ذكرِ الإيمانِ بالرَّسولِ في الآية:

الإيمانُ باللّه يقتضي الإيمانَ برسولِه ﷺ

قد يقالُ: هلَّا ذَكَرَ الإيمانَ برسولِ اللّه ﷺ، فإنَّه أهمُّ من إقامةِ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة؟! وجوابُه: أنَّه لمَّا عُلِمَ، وشُهِرَ أنَّ الإيمانَ برسولِ اللّه ﷺ مقترنٌ بالإيمانِ باللّه تعالى؛ لاشتمال كلمة الشَّهادة والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما مقترنين مزدوجَين؛ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ غيرُ منفكٍّ أحدُهما عن صاحبِه، انطوى تحت ذِكْرِ الإيمان

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/317، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 324 - 325.

باللّه تعالى الإيمانُ بالرسول ﷺ، كما أنَّ ذِكْرَ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ؛ إذْ لا يُتَلَقَّى ذلك إلَّا منه ﷺ، وأيضًا ذكرُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة دليلٌ على ذِكر الرَّسول؛ لأنَّه قامَ ببيانِهما وتحديدِهما، وإقامةُ الصَّلاةِ تستلزمُ ذكرَه بوصفِ الرِّسالة أيضًا[1].

وأيضًا لمّا كان المشركون يقولون: إنَّ محمَّدًا ﷺ إنَّما ادَّعى الرِّسالةَ طلبًا للرِّئاسة ناسبَ أنْ يذكر ههنا الإيمان باللّهِ واليوم الآخر، ويُتركَ ذكرُ النُّبوةِ، لِما يفيدُه عُمَّارُ مساجد اللّه من معنى الشَّرفِ والرِّئاسةِ، فكأنَّه يقولُ: ليس مطلوبي من تبليغ الرِّسالة إلَّا الإيمانَ بالمبدأ والمعادِ، فذكرَ المقصود الأصليَّ، وحذفَ ذكرَ النُّبوَّةِ؛ تنبيهًا للكفَّارِ على أنَّه لا مطلوبَ له ﷺ من الرِّسالةِ إلَّا هذا القدر[2].

أو يقال في بيانِ السَّببِ: إنَّه لمّا كان الكلامُ في عمارةِ مساجدِ اللّهِ ناسبَ التَّصريحَ بما يُحتاجُ إليه من الأحكام العلميَّة والعمليَّة في عمارتِها، ولاسيَّما أنَّ المقامَ مقامُ إيجازٍ، فذكرَ الإيمانَ باللّه؛ لأنَّه الأصلُ، وعطفَ عليه اليومَ الآخر لبيانِ أنَّ المؤمنين إنَّما يعمرونها رجاءَ الثَّواب عندَ اللّه يومَ القيامةِ لا للتَّفاخر بها في الدُّنيا؛ ليكونَ ردًّا على ما فعلَه الكافرون عندَ عمارةِ المسجدِ الحرام، ولهذا لم يَذكرِ الإيمانَ بالملائكة ولا بالكتاب، كما لم يَذكرِ الإيمانَ بالرَّسولِ، فالكلامُ لا تعلُّقَ له بالإيمانِ برسالةِ الرَّسول ﷺ، وإن كانَ مضمَّنًا فيما ذكر، فلا يصحُّ أصلُ الإيمانِ إلَّا بالإيمانِ به وبرسالتِه ﷺ، كما أنَّه ذكرَ إقامةَ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاةِ لبيانِ أهمِّ الأحكامِ العمليَّة التي يفعلها عُمَّار مساجدِ اللّه، فعمارة المساجد ليست مقصودةً لذاتها، بل للدلالة على رسوخ الإيمان، فناسبَ ذكرُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ لأَنَّ المَقْصُودَ مِنْ بِنَاءِ المَسَاجِدِ وَعِمَارَتِهَا هُوَ كَوْنُهَا مُجْتَمَعًا لِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا وَالتَّعَبُّدَاتِ مِنَ الذِّكْرِ وَالاعْتِكَافِ وَغَيْرِهِمَا، وَنَاسَبَ ذِكْرُ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَعَ عِمَارَةِ المَسَاجِدِ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ مَجْمَعًا لِلنَّاسِ بَانَ فِيهَا أَمْرُ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ، وَعُرِفَتْ أَحْوَالُ مَنْ يُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّهَا[3]، فلم يذكر في الكلامِ إلَّا ما يوفي به المعنى المرادُ، فلكلٍّ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/438، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402.

سياقٍ خَصوصيَّتُه في المعاني والألفاظ التي يحتاج إليها المخاطب للإقرارِ والإذعان.

سببُ إيثار التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿مَنْ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه أعمُّ معنى وأكثرُ استغراقًا، والتَّقديرُ: إنَّما يعمرُ مساجدَ الله كلُّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ، فقد يكون مفردًا أو جمعًا، وقد يكون ذكرًا أو أنثى.

عمارةُ مساجدِ الله من علاماتِ الإيمان العميق بالله

كما أنَّ لفظ "مَن" وما فيه من إبهام وعموم ينسجم مع عمارة القلوبِ بالإيمان؛ حيث إنَّه لا يطَّلع على ما فيها إلَّا اللهُ تعالى، ولكنَّ عمارتَها بقلوب المؤمنين وقوالبِهم، علامةٌ على ذلك الإيمان.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال: «إذا رأيتم الرَّجل يعتاد المسجدَ، فاشهدوا له بالإيمان، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾»[1].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ بطريقِ ذكر الموصولِ وصلتِه:

وضوحُ أوصافِ مَن يعمرُ مساجدَ الله، وسهولةُ الاتِّصافِ بها

عُبِّرَ بأسلوب الموصولِ وصلتِه في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ جملةَ الصِّلة - وهي الجمل الفعليَّة الأربع - معلومةُ الانتساب إلى معيَّنينَ يعرفهم المخاطَبون بحكم اتِّصافِهم بما ذكر في جملةِ الصِّلة؛ لظهورِ هذه الأوصافِ فيهم، ففيه تنبيهٌ إلى وضوح هذه الأوصافِ وسهولةِ الاتِّصافِ بها، كما أنَّ جملةَ الصِّلَةِ أومأت إلى سببِ أن يكونَ المذكورون هم الذين يعمرون مساجد الله دونَ غيرِهم، فالسَّببُ هو اتِّصافُهم بالأوصافِ المذكورة، وفي الصِّلة تعريضٌ بتفخيم شأنِ عمارةِ مساجدِ الله وتعظيمِ شأنِ الإيمان بالله، كما أنَّ تخصيصَ

(1) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (3093)، وقال: حديث حسن غريب، وأحمد في المسند: 3/68، برقم: (11651)، والدارمي في مسنده، برقم: (1259)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم: (1502)، وابن حبان في صحيحه، برقم: (1721).

الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكر تفخيمٌ لشأنِهما وحثٌّ على التَّنبُّهِ لهما، كما أفادت الصِّلةُ أنَّ خشية الله وحده هي طريق المهتدين.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي، والمضارع المنقلب إلى الماضي بالجزم:

مـدْحُ من يعمرُ مساجدَ الله بالإقبالِ وتحقُّقِ الامتثالِ

قوله: ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿وَأَقَامَ﴾، ﴿وَءَاتَى﴾، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾، عبَّرَ بصيغة الماضي في أفعال جملة الصِّلة؛ للإيذانِ بتحقُّق إيمانِهم وإقامتهم الصَّلاةَ وإيتائهم الزَّكاةَ، وكونِهم لم يخشوا إلَّا الله على جهة الجزمِ؛ ليكونَ في سلكِ المقطوعِ بوقوعِه، مدحًا لهم وإشعارًا بالإقبالِ والمبالغةِ في الامتثال، وعبَّر في الفعل ﴿يَخْشَ﴾ بصيغة المضارع المنفي بـ ﴿وَلَمْ﴾ لِخَصوصيَّة إفادةِ الحصرِ، كما سيأتي.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾:

الإيـمـانُ أصـلُ الأوصـــافِ النَّبيلةِ، وبه قيامُها وتحقُّقها

عُطِفَ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ على الاسم الجليل بالواو؛ لإفادةِ التَّشريك في حكم الإيمانِ، ولم يقل: (من آمن بالله وآمن باليوم الآخر) فلم يكرَّرِ الفعلُ؛ للإشعارِ بأنَّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه أَمرٌ واحدٌ في مقتضى الإيمانِ، فكلاهما تصديقٌ قلبيٌّ، فجاء على الأصلِ في العطفِ، كما أنَّ الكلامَ جاء على طريقِ الإيجاز، وقدِّمَ الإيمانُ بالله على سائر الأوصافِ؛ لأنَّه أصلُها، وبه قيامُها وتحقُّقها.

مناسبةُ العطفِ في جملة: ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾:

من بنى المسجدَ رياءً وسمعةً لم يكن عامرًا له

لمّا جاءتِ الجملةُ في سياق الرَّدِّ على المشركين الذين كانوا يتفاخرونَ ببناء المسجدِ الحرامِ وسقايتِهم الحجَّاج وغيرِها من أعمالِ البرِّ، دلَّ التَّعبير على عمومِ المعنى، أي: من يعمرُ مساجدَ الله لا يخشى إلا الله، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا من يبني المسجدَ لله، لا لأجل رياء ولا سمعة، ولكن يبنيه لمجرَّد طلَبِ رضوان الله، ففيه كنايةٌ أنَّ من بنى مسجدًا رياءً وسمعة، لم يكن عامرًا له، وفيه نكتةٌ لطيفة أخرى، وهي: أنَّه لمّا كانَت الخشيةُ تُرجَّح في حال الصِّحَّة والقوَّة، والرجاء يُرجَّح في حال المرض والضَّعف؛ ناسب أن يذكر الخشيةَ

لِما يصاحبُ عمارةَ المساجدِ من القوَّة غالبًا، وأيضًا لمّا كان السِّياق السَّابق في الحثِّ على مقاتلةِ المشركين النَّاكثين عهودَهم اندرج فيه عدمُ الخشيةِ عند القتال ونحوُ ذلك، كما أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يشيرُ إلى أنَّه لا يكفي في الإيمان مجرَّد الإقرار باللِّسان، بل لا بدَّ في ذلك من إيجادِ التَّصديقِ - حقيقةً - المثمرِ لخشية الله[1].

دلالةُ الحصرِ:

المؤمنُ لا يخافُ في الله لومةَ لائمٍ

قد يقالُ: المؤمن يخشى المحاذيرَ، ولا يتمالكُ ألَّا يخشاها، والخشيةُ أمرٌ طبعيٌّ لا يمكن دفعه عن النَّفس، فما وجهُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؟ وجوابُه: أنَّ الحصرَ إضافيٌّ، وليس حقيقيًّا، فالمرادُ بالخشية الخشيةُ في أبواب الدِّين وليس الخشيَة الغريزيَّة، كخشية أسباب الضَّرر الحقيقيَّةِ، فإنَّ هذا لا ينافي خشية الله، فليس المرادُ من الخشيةِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ الله، فإنَّهم قد يخافون الأسدَ، ويخافون العدوَّ، ولكن معناه: إذا تردَّد الحال بين خشيتهم الله، وخشيتهم غيرَه؛ قدَّموا خشيةَ اللهِ على خشيةِ غيرِه، وألَّا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقُّع مخوفٍ[2].

بلاغةُ التَّعريض:

ترغيبُ المؤمنين في ترجيحِ الخشيةِ على الرَّجاءِ عندَ مقامِ الرَّدِّ على المتفاخرين

وفي هذا الكلام تعريضٌ بالمؤمنين ولطفٌ بهم وترغيبٌ لهم في ترجيح الخشيةِ على الرَّجاء ورفْضِ الاغترار بالله تعالى، لمناسبةِ المقامِ مقامَ الخشية من الله ألَّا يُقبلَ عملُهم، ليكونَ ردًّا على المتفاخرين بأعمالِ البرِّ[3].

توجيهُ متشابهِ القرآن:

قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

(1) ابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/260.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

لكلِّ آيةٍ مقامُها وسياقُها، فيختلفُ نظمُها لفظًا ومعنًى

[التّوبة: 13] وقال هنا: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ولكلِّ آيةٍ مقامُها ومعناها، وبيانه: أنَّه في الآية الأولى جاء الكلامُ بطريق الإثباتِ، أي: إثباتِ أنَّ اللّه أحقُّ أنْ يُخشَى؛ لأنَّه لمّا أنكر عليهم خشيتَهم من الكافرين في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، دلَّ على ثبوتِ الخشيةِ عندهم، فعرَّفهم بأحقِّيَّةِ موضعِ الخشية، وأين ينبغي أن تصرفَ، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجاء على طريقِ الإثباتِ، وإنْ تضمَّن الكلامُ معنى الحصرِ، وأمَّا في هذه الآية؛ فإنَّه جاء بطريق النَّفي والإثبات، وهو أبلغ؛ لكونه نفى نفسَ الخشيةِ على العمومِ، ثمَّ أثبتَها للّه تعالى، للإيذانِ بأنَّ المشركين الذين كانوا يعمرون المسجد الحرامَ متباهين متفاخرين لم يخشوا اللّه وحده، وأنَّهم كانوا مصرِّين على خطَئِهم هذا، فناسب أن يقول هنا: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لمَا فيه من التَّعريض بالمشركين[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

الاتِّصافُ بأوصافٍ من يعمُرُ مساجدَ اللهِ سببٌ إلى الاهتداء

تفيدُ الفاءُ معنى السببيَّةِ، بمعنى ترتُّب توقُّع الَّذين يعمرون مساجدَ اللّه اهتداءَهم على اتِّصافِهم بالنُّعوت المذكورة، للإيذانِ بالمبادرة إلى الاتِّصاف بهذه الأوصاف الجميلة؛ لأنَّه سببٌ في رجائهم المذكور.

دلالةُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المشركون بعيدونَ عن الاهتداءِ بالكفران، والمؤمنون يرجون الفوزَ به بالإيمان

أفادتْ (عسى) التّبعيدَ للمشركين عن مواقف الاهتداءِ، وحَسْمَ أطماعهم مِنَ الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها، وافتخروا بها، وأمَّلُوا عاقبتَها، كما أفادت (عسى) الرَّجاءَ الراجعَ للعبادِ، فكأنَّ المعنى: إنَّ الذين يأتون بهذه الطَّاعات إنَّما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداءِ لقولهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16]، وذهب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/403.

بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ هنا بمعنى الحصولِ والوقوع؛ لأنَّها من اللّه واجبةٌ، وإنَّما عبِّرَ بصيغة الرَّجاء والتَّوقُّع ردًّا على المشركين، وقطعًا لأطماعهم في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخًا لهم بالقطع بأنَّهم مهتدون، فإذا كانَ الذين جَمَعوا هَذِهِ الخِصَالَ الأَرْبَعَةَ جُعِلَ اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعلَّ، فحالهم مرجوَّة، فما ظنُّك بأضدادهم المشركين الذين يقطعون أنَّهم مهتدون ونائلون عند اللّه الحسنى، وليس لهم حظٌّ من هذه الأوصافِ؟ وفي التَّعبير بـ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ منعٌ للمؤمنين أنْ يغترُّوا بأحوالهم، ويتَّكِلوا عليها، وأيضًا: لمَّا كانت حقيقةُ الرجاء ظنَّ حصولِ أمرٍ وقعت أسبابُه، واتُّخِذَتْ وسائلُه من مبتغيه، ولم يبقَ لحصوله إلَّا أن تكون وقعت على وجهها المؤدِّي إلى الغاية، وألَّا تعارضَها الموانعُ التي تكون راجحةً على المقتضى، أفادَ أنَّ مَنِ اتَّصف بهذه النُّعوتِ حقيقٌ بأن يكونَ من المهتدين، ولكن لا يمكن أن يجزم بذلك لمعرفتِه باللّه وخشيتِه له، فناسبَ ذلك التعبيرُ بلفظٍ يفيد طمعَهم في حصول الاتِّصاف بوصفِ المهتدين ورجاءَه بعدَ الأخذِ بأسبابِه[1].

دلالةُ اسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عُبِّرَ باسم الإشارة لتمييز المنعوتين بتلك النُّعوت الجميلة أكملَ تمييز، وللإشعارِ بأنَّها من أكمل النُّعوتِ، ولبيانِ أنَّها نعوتٌ واضحةٌ سهلةُ التَّحصيلِ، وللتَّنبيه على أنَّهم استحقُّوا هذا التَّوقُّع فيهم بسبب تلك الأعمال التي عُدَّتْ لهم، وعلى أنَّ المطلوب تحصيلُها على جهة اجتماعِها فيهم، وجاء باسم الإشارة الَّذي للبعيد للإشعارِ بعلوِّ مكانتِهم ورفعتِهم بما اتَّصفوا به[2].

علوُّ مكانةِ من يَعمُرُ مساجدَ اللّه ورفعةُ أوصافِهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/11، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، ومحمد رضا، تفسير المنار: 5/362.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

دلالةُ ﴿أَن﴾ المصدّرية:

أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿أَن﴾ المصدريّة أنَّ كونَهم مهتدين هو فيما يُستقبل من الزَّمان، ليناسبَ (عسى) التي وضعت لمقارنة المستقبل[1]، أي: لتفيدَ توقُّعَ الحصولِ وقربَهُ في المستقبل.

ملازمةٌ من يعمرُ مساجدَ الله، تفيد قربَ التمكُّن من الاهتداء

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، تفيد (من) التَّبعيض، ولم يقل: (فعسى أولئك أنْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ)، بَلْ جُعِلُوا بَعْضًا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَكَوْنُهُمْ مِنْهُمْ أَقَلُّ فِي التَّعْظِيمِ مِنْ أَنْ يُجَرَّدَ لَهُمُ الْحُكْمُ بِالْهِدَايَةِ، وسببُ مجيء الوصف على التَّبعيض هو أنَّهم لمَّا أتَوا بالنُّعوت الَّتي تؤهِّلهم للاهتداء؛ قويَ الأملُ في أنْ يستقرُّوا على وصفِ الاهتداء، ويصيرَ خُلُقًا لهم، فيكونوا من أهله، ففيه حثٌّ على الاستزادةِ من هذا الاهتداءِ، وتحذيرٌ من الغرورِ والاعتمادِ على بعض العملِ الصالحِ باعتقادِ أنَّ بعضَ الأعمالِ يُغني عن بقيَّتِها، وفيه إشعارٌ بأنَّ الاهتداء يكونُ بأعمالٍ أخرى من العباداتِ والطَّاعات[2].

التَّحذيرُ من الغرورِ بالاعتمادِ على بعض العملِ الصّالحِ والاكتفاء به

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة (افتعل) للإشعارِ بأنَّهم مجتهدون في الاهتداء، وطالبون له، كما أنَّ في الصِّيغة معنى المبالغة في طلبِ الاهتداء، ولمّا كانَ (اهْتَدَى) مُطَاوِعَ (هدى)، ومطاوعُ الشَّيْء لَا يكون مُخَالفًا لَهُ فِي أصل الْمَعْنى، أي: هديتُه، فاهتدى؛ دلَّ على أنَّ الهدايةَ قُدِّمت لهم، فهم على طمعِ حصولِ الاهتداء واتِّصافِهم به قريبًا، وفي التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ مدحٌ لهم[3].

المؤمنُ مجتهدٌ في الاهتداء، وطالبٌ له في السّراء والضّراء

(1) الأنباريّ، أسرار العربيّة، ص: 109.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.
(3) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 952.

سرُّ تعليق اهتداءِ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، بلفظ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المهتدي مَن ثبتَ له وصفُ الاهتداء وتمكَّنَ منه

قد يقالُ: إنَّ الذي اتَّصفَ بالأوصافِ المذكورة قد هديَ، ولولا أنَّه قد هُدي لَمَا آمن باللّه واليومِ الآخر، وأقامَ الصَّلاة وآتى الزَّكاةَ، فكيف يعلَّقُ اهتداؤه على رجاء الوقوع والطَّمع فيه؟ وجوابُه: أنَّه لمّا عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل المشتقِّ ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ آذنَ بأنَّ المرادَ ليس أصلَ الاهتداء - أي: الهدايةَ - بل ثبوتُ وصفِ الاهتداء عندهم، وتمكُّنُه فيهم، وهو يأتي بعدَ هدايتِه للإيمانِ باللّه وما عطِفَ عليه، فيكون المهتدي أرقى مقامًا وأرفعَ درجةً، "فحالُ هؤلاء المؤمنين حال مرجوَّةٌ؛ لأن يكونوا من المهتدين"[1]، وهذه الحالُ هي حالُ الاتِّصاف بصفة التَّوفيق من اللّه تعالى، وهي أعلى مراتبِ الاهتداء في الدُّنيا[2]، ويشعرُ الكلامُ بأنَّ استمرارَهم في هذه الأعمال الشَّريفة وتجدُّدَها منهم سبيلٌ إلى أنْ يكونوا من المهتدين.

بلاغةُ حذفِ متعلَّق ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

فائدةُ حذفِ المتعلَّق دائرةٌ بين ثبوتِ الوصفِ وإفادةِ العموم

لمّا كان الأصلُ أن يقالَ: اهتدى إلى كذا؛ دلَّ على أنَّ المحذوفَ هو الغاية التي يطلبُها المهتدي، فحُذفَ المتعلَّقُ؛ للإشعار بأنَّ المرادَ ثبوتُ وصفِ الاهتداء لهم وتمكُّنُه فيهم، بحيث يكون الاهتداءُ سجيَّةً لهم، وهو الظَّاهر، كما تقدَّم، ويحتملُ أن يكون المحذوف مقدَّرًا من السِّياق، والمعنى: فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى اللّه وإلى مُوجِباتِ رحمتِه وإلى مَباغِيهم من الجنَّةِ وَمَا فِيهَا منْ فنونِ المطالبِ العليَّةِ، فيكون الحذفُ لإفادة العموم[3].

سرُّ إيثار مجيء ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ فعلًا ناقصًا:

تقريرُ قربِ اهتداءِ المتَّصفينَ بالأوصافِ المذكورةِ، والمبالغة في مدحهم

عُبِّرَ بطريقة الفعل النَّاقص الذي يقتضي اسمًا وخبرًا، فكان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمًا لـ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ خبرُها، ولم يقل:

(1) ابن المُنَيّر الإسكندريّ، الانتصاف من الكشّاف: 2/255، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/362.
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

(فعسى أنْ يكون أولئك من المهتدين)، والسَّببُ هو: أنَّه لما اقترنَ بالكلامِ الإنكارُ على عُمَّار المشركين، وحَصَرَهُ بالمتَّصفين بالأوصاف المذكورةِ؛ ناسبَه تقوِّي الحكم بنفس الإسناد فيما يترتَّب على الاتِّصاف المذكور، فجاء الخبرُ مصدرًا مؤوَّلًا، كما أنَّ في الإخبار بالمصدر المؤوَّل مزيدَ مبالغةٍ؛ لأنَّه أخبر بالحدثِ عن الذَّاتِ، أي: عن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فيكونُ من باب (زيدٌ عدْلٌ)[1]؛ فكأنَّ كلَّ الاهتداء فيه؛ ليفيدَ مدحهم، والمرادُ تحقيق رجاء فوزِهم بالاهتداء عندَ السَّامعين، وذهب البقاعيُّ: إلى أنَّ السَّببَ هو أنَّه عندما يقوى المعنى الذي سَيْقَتْ له من طمعٍ أو إشفاق، يُجعَلُ خبرُها اسمًا؛ تنبيهًا على أنَّها الآن بمنزلةِ (كان) لِمَا اشتدَّ من شبهِها لَها بذلك[2].

(1) خالد الأزهريّ، التّصريح على التّوضيح: 1/282.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/413.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»